الفصل الرابع

السودان

اقتنع محمد على منذ بداية عهده بتفوق الخطط الحربية الأوربية على الخطط الشرقية ؛ وذلك لأن حروبه مع الجيش الفرنسى فى مصر جعلت للأساليب والأوضاع الغربية فى نظره المقام الأسمى ، و إن كانت حروب طوسن مع الوهابيين قد سارت على النمط الشرقى القديم . ومع أن إبراهيم قد ضم إلى هيئة أركان حربه الضابط الفرنسى ڤاسيير Vassiére الذى سبقت الإشارة إليه ، فقد ظلت الأساليب الحربية القديمة هى المتبعة ولم يطرأ عليها تغيير . وليس أدل على بعد نظر محمد على وثاقب رأيه ، من أنه بعد أن خرج ظافراً من حربه ، أوتى من الشجاعة الأدبية وسعة الفكر ما جعله يقدم على تحطيم آلته الحربية القديمة ليستبدل بها آلة أخرى من نوع جديد .

وشرع ينفذ هذه الخطة الجديدة بعد أن وثق من نجاح حملة إبراهيم ، وقبل أن يعود القائد إلى القاهرة . وهو عمل جدير بالحمد والثناء .

غير أن اعتداده بنفسه قد زاد على الحد الواجب ، شأنه فى هذا شأن غيره من العصاميين . ولذلك كان كغيره ممن بنوا صروح مجدهم بيدهم يثق كل الثقة بحكمته وأصالة رأيه ، يدل على ذلك قوله لجون بورنج John Bowring فى عام ١٨٤٠ :

« لقد بقيت طوال حياتى إلا قليلا منها أعمل بمفردى ، لا يعاوننى إلا

باغوص بك ، ولا أستطيع أن أقول إنى حييت حقا إلا فى الخمس العشرة سنة الأخيرة ... وكنت قبل ذلك أشك حتى فى مقدرة أولادى ، لا أستثنى منهم إبراهيم باشا نفسه . أما الآن فقد عرفت أنه يمكن الاعتماد عليه والوثوق به إلى أقصى حد (١) » .

وقد كان من حسن حظ محمد على أن أرسل الله « أنتلم سيف » Anthelme Sève إلى القاهرة فى عام ١٨١٩ . وكان Sève رجلا من أهل ليون خدم فى جيوش نابليون ؛ ولما أفل نجم القائد الكورسيكى فى ووترلو Waterloo استهوى الشرق هذا الشاب الفرنسى ؛ ورأى أن فى لفظ كولونل حلاوة وطلاوة ، فاتخذه لقباً له ، وإن كان لم يبلغ هذه المرتبة العسكرية من قبل . وأعجب باشا مصر بسرعة بديهته فاختاره ليشرف على نقل الفحم فى الصحراء . وبعد زمن ما عهد إليه بتدريب ثلثمائة من السود فى أسوان وإعدادهم للجندية . وكان هذا العمل ينطوى على شىء كثير من الخطر ، لأن هؤلاء المجندين كانوا همجاً مشاكسين طائشين ؛ ولكن سيف استطاع بدماثة أخلاقه أن يبسط نفوذه عليهم كل البسط . ولم يكن هؤلاء قد رأوا بندقية فى حياتهم ، فأثار دهشتهم بشرحه فائدتها ومقدار القوة التى أفادها الفرنجة منها . ثم أخذ يقدم لهم البنادق بالتدريج ؛ ولكنهم استخدموا سلاحهم الجديد فى رمى رئيسهم به . فكان هذا العمل سبباً فى سيطرته الكاملة عليهم ، إذ سبهم وأهانهم وأنبهم على جبنهم ونذالتهم وخوفهم وعجزهم . وكانوا يتوقعون أن يبلغ رؤساءه ما اقترفوه من الإثم ؛ فلما عرف ذلك منهم قال لهم إنهم أرادوا أن يقتلوه فعجزوا عن نيل بغيتهم ، أما هو فقد أراد أن يظهر لهم رأيه فيهم فنجح فى ذلك ؛ فإذا كان هذا

(١) بورنج فى تقريره السالف الذكر ص ١٤٦ .

يكفيهم فهو أيضاً مكتف به . فأثارت هـذه المعاملة الـكريمة حماس الجند وإعجابهم به [1] .

ولما كان سيف قد ولد فى عام ١٧٨٨ ، ونشأ فى تلك السنين التى لم تـكن فرنسا تعرف فيها إلا قليلاً من أمور الدين ، فقد رأى أن من الأوفق له أن يعتنق الإسلام ؛ وعرفه الناس فيما بعد باسم سليمان باشا . وكان من قبل مسيحيا بالاسم ومات بعد أن أشهر إسلامه رسميا . ومن ذرية إحدى حفيداته ملكة مصر الحالية . ولم تعجب هـذه الخطط العسكرية الجديدة الضباط الذين صحبوا إبراهيم وطوسن إلى بلاد العرب ؛ لاعتقادهم أنها لا بد أن تؤدى إلى إهمالهم وضعف شأنهم . ولذلك لم يألوا جهدا فى العمل لإحباط هذه النظم الجديدة . ورأى إبراهيم ذلك منهم فعزم على أن ينكس من أبصارهم بانضمامه إلى الفرقة الجديدة التى يدربها سيف ، و يصير فيها نفرا من عامة الجند . فلما عرض هذا الاقتراح على سيف لم يرحب به ولـكنه أجاب بقوله : « أما وهذه رغبتك فلن أقف فى سبيلك بطبيعة الحال ؛ ولـكن لتعلم أنك إذا لم تخضع لأوامرى كل الخضوع طوال مدة خدمتك فإن ذلك يسئ إلى نظام الجندية كل الإساءة » ، فرضى إبراهيم بذلك .

ثم أمر أن يحمل بندقية و ينضم إلى الفرقة التى كانت تتدرب وقتئذ . وكان إبراهيم عريض المنكبين ، غائر الصـدر ، طويل شعر اللحية ، قصير الساقين . ولما دفعته غريزته إلى أن يتقدم إلى أول صفه ، صرخ سيف (ولم يكن قد أصبح سليمان بعد) بأعلى صوته ، وأشار إلى المكان الذى يجب أن يقف فيه إبراهيم قائلاً : « ارجع من ذلك المكان أيها النفر القصير الساقين ! ألا ترى أن مكانك هو آخر مكان فى الصف » .

(١) المصدر عينه ص ٤٩ .

وإذا كان إبراهيم قد تردد هنيهة فى إطاعة الأمر ، فإن يد سيف ظلت تشير إلى المكان المطلوب ، ونظراته بقيت مسددة إلى إبراهيم ؛ فصدع بالأمر ، ورآه الجنود يقف فى مقدمتهم ثم يعود من مكانه صاغراً بأمر رجل أجنبى . وكان الجنود زنوجا أجلافا لم يفقهوا كلمة واحدة مما دار بين سيف وإبراهيم ، كما أن إبراهيم نفسه لم يفهم نص ما قاله سيف فى غضبه لأنه لم يكن يعرف اللغة الفرنسية ؛ وإذا كان عرف شيئاً منها فإن ذلك لم يكن قبل عام ١٨١٩ ؛ وفى هذه السنة لم يكن المدرب يعرف من العربية أو التركية إلا القليل الذى لا يسعفه . لكن الجنود كلهم أدركوا ما يقصده سيف ؛ وبادر بطل الدرعية دون تردد إلى الوقوف فى آخر الصف . ولم يخف على الجند والضباط معنى ما حدث بل أدركوا أن الطاعة لا تحط من كرامة الإنسان .

وبينما كانت هذه الآلة الحربية الجديدة فى طور الإعداد ، ولى محمد على وجهه نحو الجنوب . وليس معروفاً بالضبط سبب إقدامه على هذا العمل ، وقد يكون له أكثر من سبب واحد . ولن نحاول هنا شرح هذه الأسباب ؛ وحسبنا أن نقول إنه عقد لواء الحملة لابنه الثالث إسماعيل ، وإنه أرسل إلى السودان جيشاً ثانياً بقيادة صهره الدفتردار . وعين محمد على الخطة العامة التى كان على الجيش المصرى أن يسلكها فى خطاب كتبه إلى ولده إسماعيل فى ١٧ من شهر يناير سنة ١٨٢١ . وهذا الخطاب يفصح عن أخلاق محمد على ، فهو يؤكد فيه لإسماعيل أن الشجاعة وإن كانت من الضرورات لا تغنى عن الثبات والفطنة ودماثة الخلق[١] .

(١) مجموعة رسائل محمد على خديو مصر . المطبعة الأهلية بالقاهرة سنة ١٩١٣ الوثيقة رقم ٥٩ .

ولكن مما يؤسف له أن الضابط الشاب لم يستمع إلى نصح أبيه وحكمته ، بل عامل أحد الزعماء الذين قهرهم بشيء من القسوة والصرامة ، فلاقى حتفه جزاء له على عدم فطنته .

وكان إبراهيم قد أرسل قبل موت إسماعيل لتنظيم مديريات الوجه القبلى[١] ويستدل من خطاب أرسله إليه والده فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٢١ على أنه أرسل فى بعثة إلى السودان بعد أن أتم عمله فى صعيد مصر[٢] . و بينما هو يضطلع بهذين الواجبين ، واجب الإشراف العام على شؤون البلاد وحرب الاستعمار إذا صحت هذه التسمية ، إذا بأبيه يكتب إليه فى ٢٩ نوفمبر من عام ١٨٢١ ، يبلغه أن الثورة التى شبت فى جزائر البحر الأبيض وفى بلاد المورة وكريد قد اتسع نطاقها ، حتى أصبح من الواجب الإسراع فى إرسال أكبر عدد مستطاع من العبيد إلى مصر ، وذلك لحاجته إليهم فى تكوين جيشه الجديد[٣] .

واضطر المرض إبراهيم أن يعود مسرعاً إلى مصر قبل أن يتم تنفيذ كل ما عهد إليه به ؛ وكانت الفكرة أن يستولى على البلاد المعروفة الآن باسم دارفور . وقد وقعت عقب عودته إلى مصر حادثة طالما لج فيها ناقدوه ورواها بريس دافن Prisse d'Avennes وأرمن Harmont ، وهى أنه قد قتل بيده المعلم غالياً كبير الأقباط أى المسيحيين الوطنيين .

يقول هذان الكاتبان إن محمداً عليا ظن أن المعلم غالياً باع إلى الباب العالى معلومات عن مقدار إيرادات الباشا ، فاستطاعت الآستانة بناء على هذه المعلومات أن تحصل من مصر على أكثر مما يريد الباشا أن يؤديه . ولذلك اتفق

(١) المصدر عينه الوثيقة رقم ٦٥ .
(٢) المصدر عينه الوثيقة رقم ٨٦ .
(٣) المصدر عينه وثيقة رقم ٩٢ .

الباشا وابنه على التخلص منه . و إليك رواية بريس داڤن وأرمن بنصها :

« واستولت الحيرة على محمد على ، فعرض الأمر على إبراهيم الذى أخذ هو على عاتقه أن ينتقم منـه . فأرسل إلى المباشر القبطى (غالى) وأمره أن يصحبه فى طوافه فى الوجه البحرى . فصدع غالى بالأمر لأنه لم تداخله فيه ريبة . و بعد أن سارا معاً عدة أيام فى سرور وانشراح ، طلب إبراهيم إلى ضيفه أن يلاعبه النرد . وفى أثناء اللعب ضايق إبراهيم غالياً مضايقة دفعته على الرغم منه إلى التشاحن مع إبراهيم . فاتهم القبطى بالوقاحة وأخرج غدارة من منطقته وأطلقها عليه فأرداه قتيلا لساعته »[(١)] .

والقصة بهذا الوضع ظاهرة البطلان . قد يكون إبراهيم أشد الطغاة تعطشاً إلى سفك الدماء ؛ ذلك أمر نتركه إلى القارئ يقضى فيه بما يراه . لـكن كل ملم بأحوال الشرق لا يحتاج إلى أن نعرفه أن الأمير المسلم الذى كان يريد أن يقتل قبطيا فى عام ١٨٢٢ ، لم يكن يرى نفسه مضطرا إلى أن يلجأ إلى الحيل لتنفيذ مأربه . فإذا كان محمد على أو ابنه قد شعرا بأن المعلم غالياً يقف فى سبيلهما ، فإنهما لم يكونا فى حاجة إلى الاحتيال عليه بلعب النرد ؛ ولذلك لا نتردد فى الحـكم على أن حديث بريس داڤن وأرمن حديث خرافة .

ولسنا نعرف مع الأسف ما حدث بالضبط ؛ وكل الذى نستطيع أن نجزم بصحته أن ثمة خطابا كتبه محمد على إلى إبراهيم بتاريخ ٢٧ إبريل سنة ١٨٢٢ ، جاء فيه أن غاليا يقيم العراقيل فى سبيل جمع عشور النخيل ، وأن الأمر مهم للغاية ، وأنه إذا لم يستطع أن يمنع القبطى من الاسترسال فى معارضته غير المشروعة فعليه أن يأمر بقتله . وجاء فى آخر الخطاب : « وعليك أن تبذل جهدك كى تقنعه

(١) بريس داڤن وأرمن فى كتابهما السالف الذكر ص ٤٠ .

بما فى تصرفه من الخطأ . فإذا نجحت فيها ونعمت ، وإلا فمر بضرب عنقه ، لأن مصالح الدولة لا تعدلها مصلحة أخرى ، ولا نسمح بأن يحدق بها الخطر بسبب آرائه غير المشروعة . ورجائى أن تخبرنى بكل ما يجد »[1] .

وبعد عشرة أيام من ذلك التاريخ كتب محمد على إلى إبراهيم يخبره بوصول خطاب ينبئ بموت المعلم غالى ، ومما جاء فيه :

« لم أقتل أنا المعلم غاليا ولم تقتله أنت ، بل قتله طيشه وعناده وحبه المعارضة حبًّا وصل إلى حد الجنون . أستبدل به فرنسيا أو ابن عمه المعلم بشارة »[2] .

وإن فيما اختتم به هذا الخطاب ، وبخاصة آخر كلماته ، لدليلا على أن التعصب الدينى لم يكن هو الباعث على قتل المعلم غالى تلك القتلة العاجلة . ويؤيد هذا الرأى الفقرة الآتية المنقولة من التقرير السرى الذى رفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية رقيبها المدرب :

« لا يمكن الآن أن يمس أى إنسان أذى بسبب آرائه الدينية ؛ وقد قال مطران الأقباط الأرثوذكس فى القاهرة إن التحسن الذى طرأ من هذه الناحية تحسن لا يكاد يصدقه العقل . لقد كان الجهر بالنصرانية فى مصر يعرض صاحبه إلى ضروب من الأذى المستمر ؛ وكان إعلان الشعائر المسيحية أمام أعين الجمهور ، يعرض تلك الطائفة إلى الخطر الشديد . أما الآن فالمطران يخبرنى أنه يسير فى الطريق والصليب على صدره وعصاه بيده ولا يلقى عنتا مطلقا . وليست هذه الحال مقصورة على العاصمة بل إن الأقباط فى البلاد الصغرى يتمتعون بكامل الحرية فى تأدية واجباتهم الدينية جهرة تحت حماية القانون ، ولا يتأخر أولو الأمر

(١) مجموعة رسائل محمد على السالفة الذكر الوثيقة رقم ١١١ .
(٢) المصدر عينه الوثيقة رقم ١١٢ .

عن القيام بواجبهم إذا ما خيف أن يتعرض أحد للمسيحيين أو يمنعهم من ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية »[(١)] .

ومع أن هذه الصورة صورة التسامح الدينى تنطبق على الوقت الذى قتل فيه المعلم غالى ، أى الوقت الذى راجت فيه قصة لعب النرد معه وقتله بعد ذلك ، فإن إبراهيم كان يمثل فى شخصه معارضة الترك لاستقلال اليونان . والقارئ يذكر أنه فى عام ١٨١٥ تكونت فى مسكو وبخارست وتريست الجمعية الثورية المشهورة المسماة Philike Hetaerae لإخراج الترك من بلاد اليونان . وكانت ثورة على باشا حاكم يانيا على السلطان فى عام ١٨٢٠ إيذاناً بقيام الثورة الإغريقية . ففى شهر مارس من عام ١٨٢١ جاء ألكسندر إيسلانتى من بلاد الروسيا إلى البغدان (ملدافيا) على رأس قوة صغيرة ؛ وفى هذا الشهر عينه رفع جرمانوس Germanos كبير أساقفة بتراس Patras راية العصيان فى كلفريتا Kalavryta فى بلاد المورة .

وعجز السلطان لضعفه عن مقاومة هذه الحركة ، فولى وجهه فى وقت محنته شطر سيف محمد على البتار ، الذى استغاث به سلفه لإخراج الوهابيين من بلاد العرب . وعهد الباشا إلى إبراهيم بتنفيذ أوامره ، فصوب إغريق مصر — وهم بغريزتهم ماهرون فى بث الدعاوة — سهامهم نحو القائد الذى كانوا يخافونه بحق ويخشون بأسه . وكانوا يعرفون أن اللورد بيرون Lord Byron وأنصار الإغريق المنتشرين فى جميع أنحاء العالم يعملون لإثارة شعور الناس على « التركى الشرس » كما كان يلقبه المستر غلادستون Gladstone فيما بعد .

(١) بورنغ فى تقريره السالف الذكر ص ١٤٩ ، انظر أيضاً « حكم محمد على فى ضوء المحفوظات الروسية فى مصر » لرنيه قطاوى طبعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة سنة ١٩٣١ الجزء الأول ص ٣٧ .

فلما حدث حادث المعلم غالى رأوا فيه فرصة سانحة لنيل أغراضهم ، ففرحوا به واستغلوه أيما استغلال . وكانت هذه الحادثة تكأة صالحة ، لأنها كان يحيط بها من الظروف المحلية والتفاصيل مايستطيع الداعى الماهر أن يوجهه لمنفعته . ولم يظهر فى تاريخ العالم كله قوم حذقوا فن الدعاوة أكثر من حذق إغريق اليوم ، مع جواز استثناء الإغريق الأقدمين .

ولقد كان محمد على وإبراهيم كراماً إلى أقصى حدود الكرم فى معاملة الجالية اليونانية الكبيرة فى مصر . وليس أدل على هذا الكرم من أن الفليكى هيتارى Philike Hetaerae كانت تبث دعوتها بنشاط فى مصر[1] . وكان ثيودور تسزا Theodore Tossizza أكثر أعضائها نشاطاً وجلداً . وقد قال أثنازى بوليتس Athanase Politis الشاب الدبلوماسى الإغريقى النابه فى كتابه « الهلينية ومصر الحديثة » إن الباشا لم يكتف بعدم مقاومة الثورة الإغريقية فى مبدئها ، بل إنه ظاهرها وأعانها على أغراضها[2] . على أنه إذا كان محمد على لم يعرقل أعمال اليونانيين فى مصر عند ما كانت حركتهم فى مهدها لأنه كان يعد المسألة الإغريقية من المسائل التى تهم الآستانة لا القاهرة ، إذا كان لم يفعل ذلك فإنه نظر إلى المسألة نظرة أخرى حينما دعاه السلطان إلى حماية الراية الإسلامية . فلما هم بمقاومتها كانت الدعاوة الإغريقية لا تنى عن العمل ليلا ونهاراً من معششها فى الإسكندرية . وأضحى إبراهيم أبغض الناس إليها لأن سيفه هو الذى كان يحول بين الإغريق وبين تحقيق أمانيهم فى الاستقلال ، ولذلك كان من حسن الدعاوة أن يتهم بسفك الدماء .

(١) الهيلينية ومصر الحديثة تأليف أثنازى ج . بوليتس طبع ألكان ، باريس سنة ١٩٢٩ الجزء الأول ص ١٨٩ .

(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٨٩ .

ويقول جيمز أغسطس سانت جون James Augustus St. John الذى أتى إلى الإسكندرية فى ٨ نوفمبر من عام ١٨٣٢ ، والذى نشر فى شهر أغسطس من عام ١٨٣٤ مجلدين عن مصر ومحمد على ، إن الباشا حين دعاه السلطان لينقذ الدولة العثمانية التى كانت الثورة الإغريقية تهدد كيانها ، كان لديه جيش تبلغ عدته نحو مائة وعشرين ألف رجل ، وهو جيش أكبر مما تستطيع موارد البلاد أن تحتفظ به بصفة دائمة . وقد عجزت مصر كما قلت فى مناسبات عدة عن أن تمد الحقول بالفلاحين أو المدن بالصناع . . . ولما هم محمد على بتنظيم جيشه الجديد ، حاول أن يسد النقص الذى يحدث فى صفوفه بالعبيد السود من أهل كردفان وسنار وغيرهما من البلاد الداخلية ، يشترى معظمهم بالمال من طرابلس ، والبعض من النخاسين فى أسواق القاهرة . ولكنه لم يلبث أن وجد أن بنية هؤلاء الزنوج لا تستطيع مقاومة المؤثرات المناخية . وقد ضم إبراهيم إلى حملته على المورة نحو ستمائة أو ثمانمائة من هؤلاء الجنود السود ليتخذهم حرساً خاصا به ؛ ولكن معظمهم هلكوا أثناء سفرهم فى البحر مع أن الجيش كله لم يفش فيه وباء »(١) .

وهكذا عجز جنود إبراهيم السود عن القيام بما كان يراد منهم ، لأنهم لم يستطيعوا مقاومة البرد . ولكن بعد نظر الوالى هداه إلى إنشاء أسطول استطاع أن يقوم بالواجب العادى الذى اضطلع به . وكان ما قام به أمير البحر نلسن هو الذى هدى الباشا إلى أهمية السيادة البحرية ؛ وذلك لأن محمداً عليًّا كان نافذ البصيرة لا تفوته الإفادة من كل درس تهيئه له الظروف .

(١) « مصر ومحمد على أو رحلات فى وادى النيل » تأليف جيمس أغسطس سانت جون طبعه فى لندن لنجمان ، وريز ، أورم ، برون ، جرين ولنجمان سنة ١٨٣٤ الجزء الثانى ص ٤٧٥ .

ومع أنه كان شديد الإعجاب ببونابرت فقد انطبع فى ذهنه أن القائد الكورسيكى اضطر إلى الفرار من مصر ليلا كما يفر اللصوص ، لأنه لم يكن له أسطول يكفى لحمايته . وقد وصف انجيلو سمارکو Angelo Sammarco العالم اللوذعى الذى لا يألو جهداً فى دراسة عهد محمد على ، وصف هذا العالم ولع الباشا بالبحر ، فقال إن محمداً عليا هام بحب البحرية هياماً لا يعادله هيام[1] . وكذلك فعل چورج دون George Douin أحد رجال البحرية الفرنسية الذى أعير الآن إلى شركة قناة السويس ، فقد نشر فى عام ١٨٢٦ رسالة شيقة خاصة بموضوع الفرقاطات الأولى من أسطول محمد على[2] . ومع أن الأستاذ سماركو قد قصر بحثه على ما قدمته إيطاليا إلى أسطول الباشا ، فإنه وجد من المادة ما يكفى ثلثمائة وأربعين صفحة . وملاك القول أن اهتمام الباشا بالأسطول المصرى أصبح الآن من القضايا المقطوع بصحتها التى لا يجادل فيها إنسان .

وتدل وثائق دار المحفوظات المصرية بسراى عابدين ، وهى الوثائق التى لم تنشر بعد ، على أن محمداً عليا قد قام لديه البرهان منذ عام ١٨١٠ على ضرورة وضع أساس قوة مصر البحرية . وما كاد محمد على يلم بمبادئ القراءة والكتابة حتى شرع يوجه نظر الباب العالى إلى حاجته إلى السفن . وقد قال مرة لجون بورنج John Bowring « لم يمن الله على بنعمة التعلم فى الصغر ، ولم أعرف القراءة والكتابة إلا بعد أن بلغت السابعة والأربعين ، ولم أر بلداً أكثر مدنية من بلدى ولذلك لا آمل أن أقوم بما تستطيعون أنتم (يريد الإنجليز) أن تقوموا به

(١) البحرية المصرية فى عهد محمد على وحظ الإيطاليين فيها لأنجيلو سماركو . الجمعية الجغرافية الملكية المصرية ١٩٣١ فى صفحتى ٥ ، ٦ من المقدمة .

(٢) الفرقاطات الأولى من أسطول محمد على (١٨٢٤ — ١٨٢٧) تأليف جورج دون وطبعتها الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٢٦ .

أو أن أصل إلى الدرجة الرفيعة التى وصلتم إليها » ثم أعان لساعته رأيه فى مزايا القوة البحرية فقال :

« لقد كشف الإنجليز عن كثير من الأشياء العظيمة ، ولكن خير ما كشفوا وأعظمه نفعاً هو الملاحة التجارية » .

ثم يقول بورنج : « فلما أخبرته أن الذى كشف طريقة الملاحة التجارية أمريكى أجاب : « لو لم يكن للأمريكيين آباء كآبائكم لما بلغ أبناؤهم ما بلغوا »(١) .

وليس لدينا ما يثبت أن إبراهيم كانت له يد فى إقناع محمد على بما للقوة البحرية من خطر عظيم ، وذلك بأن إبراهيم كان فى عام ١٨١٠ أصغر من أن يؤثر فى أبيه أقل تأثير . ولكن لما دار الفلك دورته ، وأمسى ذلك الشاب بطل الدرعية رجلا إداريا يصرف الأمور بعقل السياسى القدير ، لما أمسى كذلك أخذت رسائله الرسمية تفيض بالبراهين الدالة على أنه كان يعرف خطر القوة البحرية ، وأنه كان يشعر بضرورة الكفاح فى سبيلها . وليس أدل على إدراكه للأمور البحرية إدراكا يشبه إدراك الإنجليز لها من عبارة يعزوها إليه الدكتور ياتس Dr. Yates ، الطبيب المبشر الذى قضى فى مصر عدة سنين ، فقد نقل عنه أنه قال : « إن الفرنسيين لم يعرفوا كيف ينشئون السفن ولا كيف يسيرونها »(٢) .

وقد ظل الإغريق أجيالا عدة يقومون بوظيفة كبار الملاحين فى الدولة العثمانية . وكانوا بحارة مهرة ، يسيطرون على البحار التى كان لا بد أن يجتازها إبراهيم ليطفئ نار الفتنة التى شبت فى المورة . وكان العدد الأكبر من أبطال

(١) بورنج فى تقريره السالف الذكر ص ١٤٧ .
(٢) تاريخ مصر وحالها فى الوقت الحاضر تأليف الدكتور وليم هولت ياتس طبعة اسمث إلدر وشركاه بلندن سنة ١٨٤٣ الجزء الثانى ص ١٩٢ .

حرب الاستقلال الإغريقية من أبناء هيدرا واسپيزيا Hydra & Spezia ، والدليل على ذلك أن معظم ما بقى من أسماء هؤلاء الأبطال أمثال Colocotronis, Colettes, Canaris, Miaulis أسماء يونانيين ذوى صلة بالبحار . وكانت أعمال القرصنة التى أتاها رجال يجلهم الإغريق الآن ويعدونهم أبطالا ، هى التى جعلت للثورة الإغريقية مكانتها فى نفوس الغربيين . ومن ذلك يرى أن البحر كان له شأن أيما شأن فى القسم الثانى من حياة إبراهيم .